دانيلا كرين

حياتي الثالثة

رواية

الفصل الأول

1

جاء صباح اليوم صقر مندفعًا من السماء ليهجم على واحدة من دجاجاتي الصغيرة. والتي كانت قد تجاسرت وخرجت بعيدًا عن حماية أشجار الفاكهة وراحت تنقر بحثًا عن الحَب بمنأى عن الآخرين. كنت أدفع لتوي عربة يد مليئة بالأوراق المتساقطة والأوساخ والأغصان الجافة عبر حديقة الدجاج باتجاه كومة السماد عندما لمحت بطرف عيني الطائر الجارح يقترب. فتركت عربة اليد، وركضت كي أفتح بوابة حظيرة الدجاج. كانت يدي مغطاة بقفازات العمل، لذلك مددتها نحو الطائر دون تفكير. فنقرني بمنقاره القصير المنحني، وأصدر أصواتًا حادة، وأخذ يرفرف بجنون دون أن يترك فريسته تغيب عن عينه. كانت هناك قوة في هذا الحيوان لم أكن أتوقعها، وأدرت رأسي جانبًا لحماية نفسي من ضرباته. عندما أطبقت عليه بشكل صحيح، دفعت به لأعيده في الهواء بكل قوتي.

صرخت بصوت غريب: "ابتعد."

للحظة بدا وكأنه مصاب. بدا كما لو أن جناحيه لا يتحركان معًا بنفس الإيقاع. كان يترنح فوقي على ارتفاع منخفض. لكنه ابتعد فجأة بضربات أجنحة قوية، وحلق مرة أخرى فوق حديقة الدجاج وانعطف مبتعدًا أخيرًا.

وقفت لفترة من الوقت لأرى ما إذا كان سيجرؤ على المحاولة مرة أخرى. كانت دقات قلبي سريعة؛ وشعرت بدمي ينبض حتى أخمص قدمي وأطراف أصابعي. كان تنفسي صاخبًا ومتقطعًا، بينما كانت الدجاجة مستلقية عند قدمي دون حراك. نزعت القفازات من يدي وانحنيت، وكنت على وشك لمسها حين طارت فجأة. ولم تترك خلفها سوى القليل من الريش.

للحظة رأيت أمامي شخصيتي السابقة: تلك المرأة ذات الشعر المُصفّف جيدًا، والمُحبة للكشمير والحرير والكتان باهظ الثمن، وأظافرها المشذبة، وعيناها وشفتاها المطلية بأدوات الزينة بعناية دائمًا، ونفورها من كل ما هو خشن وقذر. المرأة المصابة بالهوس المرضي مما يجعلها تبحث في جوجل عن كل عرض من أعراض المرض لتشتبه دائمًا في إصابتها بالسرطان. الحذرة، التي كانت تتخلص من كل المواد الغذائية في اليوم التالي لانتهاء تاريخ الصلاحية. النظيفة، التي كانت تعيد التنظيف مرة أخرى بعد أن تنتهي عاملة النظافة.

هززت رأسي لا إراديًا، وعدت إلى عربة اليد لأدفعها إلى مستودع المخلفات وأفرغها. واستخدمت شوكة التبن في تفريغ حمولة العربة ثم بحثت في السماء مرة أخرى عن الطائر لص الفراخ. في المرة القادمة لن يفلت من العقاب. إذا عاد سأضرب رأسه بعينيه الصفراوين المحدقتين في أقرب شجرة.

اسمي ليندا.

يعني اسم ليندا *اللطيفة، الودودة، الرقيقة* .

لم يعد لهذا الاسم أية علاقة بي.

لا يزال الجو بارداً في المنزل. إذ تشتعل النار في الموقد منذ بضع دقائق فقط. أرتدي قميصًا داخليًا طويلاً من القطن السميك وكنزة برقبة عالية يعلوها سديري مبطن بالريش. يغلي ماء الشاي بينما أقطع بداخله الزنجبيل وأدس قطعة رقيقة جدًا في فمي. ثم أجهز الماء لسلق البطاطس وأقاوم الرغبة الملحة في كتابة رسالة إلى ريتشارد. أريد أن أخبر أحدًا عن الصقر، وهو الشخص الوحيد الذي لم أطرده من حياتي.

لا تبتعد كايا عني على الإطلاق. تشعر تلك الكلبة بكل شيء، وتستجيب فورًا. بينما أتجول بقلق من غرفة إلى أخرى، تبقى هي قريبة جدًا مني. لا تفهم هي كحيوان سلوكي، بل يخيفها. فهي تريد سيدة واثقة تقودها، أما أنا فأرسل إشارات تربكها وتزيد من تعلقها الخاضع بي.

أشغّل الراديو وأجلس إلى الطاولة، ثم أبدأ في تقشير البطاطس، وأشير إلى كايا لتذهب إلى مكانها بجانب الموقد الذي بات يتوهج من شدة الحرارة. تطيع على الفور. تعلن النشرة الجوية عن هطول الأمطار؛ وتُذكَر في تقارير المرور الطرق المغلقة في جميع أنحاء وسط ألمانيا بسبب العاصفة التي وقعت أمس.

في مقاطعة هارتس، بين "إليند" (البؤس) و"زورجه" (القلق)...

أضحك بصوت عالٍ، فترفع كايا رأسها وتنظر إليّ بفزع.

الآن سكنت رياح.

في ضوء الشتاء الباهت لهذا اليوم من شهر يناير، أجلس عند نافذة المطبخ، لأشرب شاي الزنجبيل الطازج مع كثير من العسل، وأتطلع إلى الفناء الخارجي. لم يعم النور منذ أسابيع. يُخيّم لون رمادي موحّد على المنطقة ويبتلع كل بهجة؛ إنه يُخمد الأحاسيس، سواء كانت جيدة أو سيئة. أشعر بشيء ما، لكن هذا الشيء لا يريد أن يصعد ليخرج مني. إنه وميض صغير غير لافت، لكنه مع ذلك يُبقي الحياة مستمرة.

أخلع سديري الريش وكذلك الكنزة السميكة. تنبعث من تحت إبطيّ رائحة نفاذة؛ عليّ أن أستحمّ جيداً مرة أخرى. الشعر ليس بتلك الأهمية، فتمشيطه بانتظام يكفي. لم أعد أستعمل الشامبو منذ وقت طويل. لقد توازن إفراز الدهن الطبيعي خلال بضعة أشهر، ويبدو أن بشرتي وشعري باتا أكثر صحة من أي وقت مضى.

أجلس في وضع القرفصاء داخل حوض الاستحمام البارد وأفتح صنبور الدش. ماء ساخن لوهلة، ثم بارد، ثم أضع الصابون وأشطف نفسي طويلاً بالماء البارد. بعد أن أفرك جسدي بالمنشفة ليجف تبدأ بشرتي بالوخز وأشعر بالدفء. لا أرى وجهي في المرآة المعتمة فوق المغسلة سوى بشكل ضبابي. تمرّ أصابع يدي اليمنى على الندبة الطويلة فوق عظم الترقوة. أدهنها كل يوم بالمرهم. هكذا تبقى البشرة مرنة، ويزول تدريجيًا هذا اللون الأزرق البنفسجي. فيما مضى، كانت غدتي الدرقية تحت هذه الندبة. لقد دمّرها السرطان، وأزالها الأطباء لإنقاذ حياتي - تلك الحياة التي كانت تعني لهم أكثر مما كانت تعني لي أنا. فإنقاذ الأرواح هو مهمتهم. لا يهمهم إلى أية حياة يعيدون المريض الذي شُفي.

الخوف واليأس، اللذان كثيرًا ما يتبعان تشخيص السرطان، لم يتمكنا مني. في الواقع شعرت بفرحة غريبة، نوع من حيوية متزايدة في مواجهة الموت، وإحساس يشبه ما قد يشعر به عدّاء ماراثون قبل الوصول إلى خط النهاية بقليل. بينما عجز ريتشارد وأمي وأصدقائي عن استيعاب ذلك. ليس مصيبة أخرى بعد كل ما حدث. وتساءلوا "لماذا؟ لماذا ليندا بالذات، بعد كل ما مرت به؟"

لكنني فكرت: "ولِما لا؟"

بدا لي السرطان نتيجة منطقية وحتمية. كان جسدي قد فقد قدرته على المقاومة. لقد نخرت الأحزان خلاياي على مدى أكثر من عام، حتى أصابها الوهن الشديد. كان ذلك مسارًا منطقيًا.

فعل ريتشارد ما يفعله الرجال عادةً في الأزمات: البحث عن حلول. قضى ليالٍ كاملة في التصفح والبحث عبر شبكة الإنترنت. اشترى الشاي الأخضر والكركم والبروكلي، لما لهذه الأشياء من تأثير مزعوم في إبطاء نمو الخلايا السرطانية وتسريع موتها، ومنع السكر تمامًا من منزلنا، ونظّم مواعيد مع أطباء للحصول على رأي ثاني وثالث. لكن التشخيص ظل كما هو.

طرأ تغيير على ريتشارد، وكان ذلك جليًا. إذ بدأ الإرهاق القاتم الذي خيّم على وجهه النحيل خلال الشهور الماضية يتلاشى. كما بدت التجاعيد العميقة الممتدة من أنفه إلى فمه وكأنها خفّت قليلاً، وأصبحت مشيته أكثر حيوية. وأخيرًا، وجد سببًا ليتجاوز الحزن ويقدم على اتخاذ الأفعال من جديد. أصبحت محاربة سرطاني مهمته. ومن هذه اللحظة، بدأنا نتحرك إلى الأمام ثانية.

معركتي أنا في المقابل لم تكن معركة حقيقية، بل كانت مجرد رد فعل انعكاسي أثارته إمكانية الموت. القاتل الذي يحمل اسم السرطان أطبق بيديه على عنق الضحية وأخذ يضغط. فدافعت الضحية عن نفسها بشكل لا إرادي، تقريبًا رغماً عنها، لأن كل كائن حي يقاوم الموت. غريزة البقاء مغروسة في جيناتنا. استاء ريتشارد من هذه الفكرة، لأن هذه النسخة من القصة لم يرد ذكره فيها.

أفكر كثيرًا في ريتشارد. إنه زوجي - هو رجل طيب، من عائلة لطيفة ومتوازنة، وشجرة عائلته مليئة بالأطفال والآباء والأشقاء والأخوات، وأبناء وبنات الأخوة والأخوات وحتى لا تزال لديه جدّتان. أما عائلتي، فتكاد تتكوّن فقط من أموات وأشخاص مجهولين. لقد اخترتُ هذا الرجل، الذي عوّض نقصي، ويمكنني أن أقول، دون نفاق: أنا أحبه.

أطرح على نفسي السؤال كل يوم تقريبًا: هل أظلمه؟ لو كان بمقدوري التصرف بشكل مختلف، لفعلت. معظم الناس لا يؤذون الآخرين عن قصد. إنهم يبذلون قصارى جهدهم، إلا أن قصارى جهدهم هذا لا يكفي أحيانًا. لم يرتكب ريتشارد بدوره خطأً. كل ما فعله أنه في يوم من الأيام استدار ونظر إلى الأمام، بينما بقي نظري أنا موجّهًا نحو الماضي.

عندما يزورني ينظر بصمت إلى يديّ اللتين أصبحتا قويتين، ويعلّق على غروري الذي تخليت عنه، وعلى انضباطي الصارم. في الآونة الأخيرة كان يراقبني وأنا أُشقّ الحطب في الفناء بالفأس، ورأى كيف كانت القطع تتطاير يمينًا ويسارًا، وكيف كنت أجمعها

لاحقًا في عربة اليد لأرتّبها بجانب جدار المخزن. ظهرت تجاعيد دقيقة على جبينه. فتبيّن لي كم أصبحت غريبة عنه.

تشتعل الآن أيضًا في غرفة الجلوس نار في الموقد. أدفع المقعد الكبير عالي الظهر إلى وسط الغرفة وأجلس عليه. على الجدار المقابل للنوافذ تزين صور أسلاف المالكة السابقة للمنزل غريته آدوميت وأبنائها وأحفادها. حيث علّقت صوري الخاصة بجانبها ببساطة.

أحيانًا، وخاصة في ساعات ما بعد الظهيرة المتأخرة، أجلس هنا على هذا المقعد لأحدق في الصور حتى تُطمس معالمها شيئًا فشيئًا مع حلول الظلام، ثم تختفي تمامًا. عندها يحدث أحيانًا أنني أسمع صوت سونيا. أسمع صوتها بوضوح شديد. تنادي: "ماما، ماما، انظري!" أو تغمغم لنفسها وهي منغمسة في لعبة ما. حتى صوتها في سن المراهقة سمعته بالفعل. في العادة لا يدوم ذلك سوى ثوانٍ قليلة ثم يخفت الصوت ويختفي تمامًا. أحيانًا، وقبل أن يتلاشى يعلو عليه صدى غريب، وفي كل مرة أتوقف عن التنفس وأتجمد في مكاني وقد ملأني الخوف من أن يصدر مني صوت عفوي يطرد سونيا. صوت واحد فقط يكفي لتختفي. يجب أن أتجمد... فقط حينها تبقى. في تلك اللحظات ترفع الكلبة أذنيها وتهب واقفة وغالبًا ما تركض في الاتجاه الذي يأتي منه صوت الطفلة.